جميلة

اسمي جميلة ولكني لا أمتلك من معنى اسمي غير جمالي الظاهري، أما روحي، فهي سوداء تئن بما يكفي أن تصدر صوتًا يشابه صوت الانفجار، وعن أعمالي فهي ينبوع الحرام المتوهج، أمتلك ما يصل لربع قرن من الزمان على تلك الحياة الدنيا، تلك السنوات التي بدأت برحيل أمي بعد ولادتها لي ببضعة ساعات بعد أن أفقدت من دمها الكثير ولم يشفع لها المتبقي منه للنجاة بحياتها من الرحيل الأبدي، فكان حرماني من ضمي لأحضانها الذي لم يحدث ولو للحظة واحدة هو هاجسي الذي لم يغادرني حتى الآن.

لم يحزن أبي على أمي الكثير من الوقت؛ فقد كان لقلبه الملتهب اللعين الكلمة العليا فأجبره القلب الجائع على زيارة المأذون مرة أخرى في غضون سبعة أسابيع بعد وصول أمي لمثواها الأخير، فكان شتات نفسي ووحدتها هما جزائي؛ فلم يكن لي مسكن محدد ألزمه، فكنت أنتقل للسكن من مكان لآخر عند بعض الأهل والأصدقاء، هربًا من جحيم زوجة أبي التي كانت تستمتع بقهري وإذلالي وسط حالة من اللامبالاة سيطرت على أبي المستسلم لملابس زوجته الداخلية ذات اللون الأحمر، فلم أجنِ من حياتي سوى فقدان الأمان وحاجتي الماسة للحنان.

مرت الأيام سريعة مريرة، وعلى الرغم من معاناتي إلا أنني أنهيت تعليمي الأساسي بمجموع درجات لا بأس به، جعل من إمكانية لحاقي بمدرسة الثانوية العامة أمرًا يسيرًا، فكانت النقطة الفاصلة في حياتي حين تأكد أبي من حمل زوجته اثنين من الأجنة في أحشائها بعد خمس عشرة سنة عانت فيها زوجته من العقم، حيث خضع أبي لرغبة زوجته دون نقاش بحرماني من طموحي في إكمال مسيرتي التعليمية، ليقررا اغتصاب حياتي وحقوقي الاجتماعية والبحث لي عن زوج لأفسح مكانًا في المنزل

لأخويَّ، فكانت الحفلة التي أقامها أبي بوصول أخويَّ الذكور إلى الدنيا بمثابة السوق الذي طرحني كمنتج خاص به يشتريه من يريد ولو بشكل مجاني، فلم أجد أيًّا من البشر يصون ويحفظ لي كرامتي وإنسانيتي المنتهكة من والدي.

كان خروج أبي وزوجته من المنزل لزيارة طبيب الأطفال الخاص بأخويَّ بمثابة فرصتي العظيمة للهرب والانتقام معًا، فكان أول مشواري المنفرد استيلائي على جميع متعلقات أبي وزوجته المادية والثمينة والتي يشكل أكثر من نصفها ممتلكات أمي رحمها الله، ليكون ذلك الفعل هو انتقامي منهم وبداية الحرامات التي ارتكبتها في حياتي، فما كان من زوجة والدي إلا قيامها بتحرير محضر سرقة ضد الابنة اليتيمة التي تفننت في دمارها وسط تغاضٍ تام من أبي عن أبوته، ليؤكد اتهام زوجته في قسم الشرطة، ولم يسعَ ولو للحظة واحدة في التفكير والبحث عن ابنته الهاربة.

لأبدأ طريقي الجديد بالإقامة في مساكن العشوائيات في المقابر، ووضعت ما حصلت عليه من أموال جراء بيع المسروقات بداخل حفرة

من التراب بالقرب من حرم المقابر، وبدأت في العمل كخادمة في المنازل صباحًا، وأعود لعشش القبور في المساء، وليظل حالي بلا جديد تحت الشمس حتى بلوغي سن الرشد، فكان موعدي مع انتقامي الثاني، حيث كان من نصيب السيدة جبروت التي كنت أعمل على خدمتها طوال عدة سنوات، تلك المتوحشة التي تفننت في عذابي ليقينها بأنني أحتاج للعمل لديها، ولإحساسها بأنني أخفي عنها سرًّا دفينًا، فكانت تستغل ضعفي وقلة حيلتي بحرماني من الراحات، وأحيانًا من مقابل أتعابي لديها.

وكانت السرقة هذه المرة عامرة بالكثير من الخيرات، تفوق ما سرقته عندما كنت صغيرة من شقة والدي أضعافًا كثيرة، لأستقر بعدها في إحدى الشقق الفاخرة المطلة على نهر النيل، والتي كانت بمثابة مكافأتي لنفسي عقب سنين الحرمان، بعد أن تمكنت من استخراج بطاقة الرقم القومي بصعوبة لإثبات ممتلكاتي بشكل رسمي، وكان من تأسيسي لعمل مشروع تجاري ليكون واجهتي التي أعتاش منها فكرة سديدة،

ولأخفي فيها ثرائي الفاحش المحرم، ولكي أغسل أموالي من ملاحقة سلطة من أين لكِ هذا، فاخترت أحد الأشخاص الذين تعرفت عليهم أثناء إقامتي في حرم المقابر لإدارة التجارة مقابل نسبة من الإرباح.

ومع كل ذلك لم أشعر بالأمان في أي لحظة من اللحظات، فأرشدني ضميري للزواج للشعور بالأمان والاحتماء في كنف رجل بهدوء لنحيا حياة الود والهدوء، ولكن أين هو الزوج الذي يفتخر بنسبي وبمصاهرته لعائلتي وأنا الهاربة المشردة التي جمعت أموالها من السرقة والافتراء، فكان انحدار كرامتي هذه المرة بمعرفتي حيث عرضت نفسي كزوجة لمدير نشاطي التجاري بحلال الله، فكانت موافقته ليست من أجل شخصيتي أو من أجل تجربة الزواج؛ بل كانت من أجل التجارة التي برع فيها وصارت لها مكانة مرموقة بين التجار والأسواق، فكان زواجنا بلا روح، بلا محبة، حيث كان كالخاتم في أصابعي أحركه كما أشاء وقتما أريد، حرصًا على استمرار عمله في إدارة أملاكي، فلم أشعر برجولته في الاحتواء والقوامة، أو حتى في ذكورته المتمثلة في لهفته على جسدي والتمتع به، فكان كاللعبة أحركه بالأمر في ارتواء رغباتي الحميمية بكل

برود، وإن كان لطيف التعامل، ممتعًا وحنونًا، يتلهف ويستمتع مع الساقطات صديقاته اللواتي يواعدهن سرًّا، فأغلقت على نفسي ورضيت بوضعي حينها من أجل الاستقرار، لكن هيهات أن يسير الحال بشكل ثابت مستمرًا طوال العمر، فكان اليوم المشؤوم، حين استلمت جثة زوجي من إحدى المستشفيات بعد إصابته بنزيف حاد في المخ جراء حادثة سير، لم أستطع النوم ليلًا بعدها، فكنت أغلق على نفسي حجرتي وحيدة أبكي وأتلهف لمن يغرقني في أحضانه ويغمرني بقبلاته ويجعل من يديه مركبات تسير على ظهري حنانًا ذهابًا وإيابًا، كنت أشعر بأنني بحاجة لمن يسمع صراخي، كنت أحتاج أن أشعر أنني إنسانة من لحم ودم، وأن أجد من يحترم إنسانيتي، فتلك هي الاحتياجات الفطرية الأساسية الملحة للحياة السوية لأي إنسان، فكان حرماني الجديد المتفاقم وقودًا لانحراف العقاقير المسكنة والمخدرات النباتية والمخلقة، وحياة السهر وتناول الخمور في الملاهي الليلية وإحراق للأموال بلا هدف، تلك الحياة التي كانت بمثابة إلهاء لعين وجدار وهمي من النسيان ليعزلني عن أحزاني وحرماني.

ولم تكتفِ نفسي الهشة بذلك؛ فتحالفت مع الشيطان وألقى على مسامعها الوساوس، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا كالفريسة الكئيبة المستسلمة ينهش في جسدي العاري أحد الغرباء يعتليني في مضجعي، يحتويني في أحضانه، فأطلقت زفيرًا حادًّا يحتوي على العديد من الغازات التنفسية السامة الساخنة، يصاحبه أنين الإشباع بعد الحرمان، شعرت معهما بزوال جميع طاقاتي السلبية، وإحلال طاقة السكينة والفرح مكانها، حيث كان مجرد التلامس والتلاصق عرايا والانتشاء بشكل فاجر ما هو إلا صبر طفيف يعوض حرماني النفسي من وجود أب صالح يشعرني بالثقة والأمان، وأم حنون تزرع بداخلي العطف والإحسان، ومن وجود العديد من الأشقاء والأصدقاء أتشارك معهم طوال حياتي بهجة الحياة، وأن أكون من أوائل الطالبات في مسيرتي التعليمية، وأن أعلو بقدري في المجتمع يصفق لي الجميع، يتهافتون على التودد لشخصيتي الوقورة، فلم أكن أرغب في ممارسة الجنس كفعل مستقل بذاته، ولكن كنت أريد أن أشعر بمن يرغب في وجودي ومن يشعرني بأهميتي في هذه الدنيا الغير عادلة حتى ولو بالفعل المحرم.

وعند انتهائي من النجاسات واختلائي بنفسي في غرفتي وحيدة تملكني البكاء كالطفلة المغتصبة، تتساقط منها الدموع كثيفة وبطيئة تكفي لامتلاء كوب زجاجي يسع لنصف لتر من الدموع، لم تكن دموع ندم فالندم لم يعرف طريقه نحوي أبدًا؛ ولكنها دموع الوحدة وإحساس الحرمان العاطفي، لينتهي بركان الانحطاط الثائر المتكرر وأنا ألتف بالقماش الأبيض الساتر لعورات جسدي المجرد من الملابس، مقيدة اليد بصحبة أحد شركائي الفاجرين، تنتظر العرض على وكيل النائب العام ليقرر محتويات الفصل الجديد في قصة حياتي، وعلى الرغم من معرفة مصيري المنتظر والتأكد من حصولي على لقب عاهرة بدلًا من سيدة المجتمع الفاضلة ناصعة الشرف والبياض؛ إلا أنني شعرت بسعادة غامرة حين أخبرني من كان يشاركني مضجعي النجس والمقيد معي بنفس القيد المعصمي واهمًا بأن كل شيء سيصبح على ما يرام، وأن خروجنا من مقر النيابة سيتم خلال دقائق معززين مكرمين، حيث يمتلك صداقة عدد من الشخصيات الهامة المؤثرة في صنع القرار، التي

لن تقبل أبدًا أن يكون في ذلك الوضع المهين، فلأول مرة أشعر بالمشاركة في الحياة، وأن هناك من يسعى ليطمئنني ويهتم بخوفي وقلقي، ويعتبر شخصي حدثًا مهمًّا في حياته، حتى وإن كان ذلك واهمًا على سبيل طمأنة نفسه في المقام الأول، أو أجبرته الظروف على ذلك دون رغبة سابقة نابعة منه، حينها خفق قلبي تجاهه حبًّا وتمنيت أن يقوم بتقبيلي ويحتضنني طوال العمر بلا توقف؛ ولكن هذا الفعل أصبح غير متاح الحدوث.

في خلال أيام قليلة تحولت أوراق التحقيقات إلى المحكمة التي قضت بتقييد حريتي خلف الأسوار لمدة سنة كاملة، وعلى الرغم من آلام إقامتي في مسكني الجديد الملزم بالقوانين الصارمة؛ إلا أنني أحسست بالعفة والطهارة، وكنت أبدل أوجاع تحرري من سطوة العقاقير المميتة إلى عزيمة وإصرار على إنهاء حالة الأسر والضعف التي سيطرت على شخصيتي، وأيضًا شعرت بالاستقرار والطمأنينة، فكان من مشاركة زميلاتي العاهرات وغيرهن من المذنبات في الحياة العادية داخل السجن، كالنظافة والطبخ وجلسات النميمة شفاء لجروحي

ومصدرًا لسعادتي، وأحسست بالندم لأول مرة في حياتي، فهو دواء كالعلقم ولكنه شافٍ لا محالة، لتكون تلك السنة هي أجمل أيام حياتي، وكم كنت أتمنى في أحلام اليقظة ألا تكون نهايتي كتلك النهاية التي عاصرتها، إلا أن هذا الحال هو الوضع الطبيعي للداعرات الموبوءات أمثالي.

وبعد انقضاء فترة الحبس الوجوبي كنت أمام لحظة اختبار حرج، فقدراتي النفسية حينها كانت على المحك، فلا بد من إثبات صلاح أحوالي أمام نفسي أولًا قبل الآخرين، فما كان مني إلا أن قمت بشراء ملابس جديدة بعد أن هداني الله للحجاب والالتزام بأوامره الدينية بداخل السجن، وكان بيع محل إقامتي وتصفية ذيول تجارتي السابقة التي أغلقتها بعد وفاة زوجي خطوتي التالية، ورددت مسروقات السيدة جبروت طالبة منها العفو والمسامحة، لأصل بعدها الى محطتي النهائية منزل والدي، حيث كان الشوق والحنين لخيال لذيذ لم أعاصرة قط، إلا في أحلام يقظتي هو الغامر لنفسي الجائعة، فكم كنت أتمنى أن يتحول

هذا الخيال الآسر لواقع عذب مديد، ولكن حين نظرت إلى أبي للمرة الأولى بعد طول غياب، بادرني بعدة نظرات كان وقعها على نفسي كالكرباج الساخن حين يقسو على الجلد الناعم لتبدأ بعدها مراسم حفلة استقبال ارتجالية أحياها والدي بمفرده ضمن فقرات من الردح و الذم والتوبيخ لم تقل حدتها عن حد كرابيجه السابقة، وما كان مني إلا التغاضي عن تلك المراسم المستحقة برحابة صدر واسعة وبعدما خمدت ثورة البركان الملتهب الهائج، وبعد طول إلحاح رضخ أبي لمطلبي وبدأنا جلسة بوح وعتاب كانت بمثابة وقود سعادتي الحالية، تحدث كلانا في تلك الجلسة بوضوح تام عن مشاعرنا المبعثرة المفقودة، وعن دوافع أعمالنا السابقة وطموحاتنا في أيامنا المتبقية وانتهت تلك الجلسة بالمسامحة الكاملة التامة عما مضى تجاه الآخر، وبدء مشوار جديد في الحياة دستوره العطف والمحبة، قانونه الإلزامي الشرف والكفاح، لتبدأ بعدها رحلة العيش في كنف أبي بمصاحبة أخويَّ اللذين أصبحا مصدر سعادتي وطاقتي الإيجابية، حيث وجدت في نفسي أمًّا بديلة لهم بعدما

تركت والدتهم المنزل خالعة والدي من قيود الزواج بحكم قضائي، تاركة له بإرادتها الكاملة رعاية أبنائهما بعدما قررت البحث عن رجل آخر يغرقها في رغد الحياة.

وانطلقت خطواتي الفعلية في مستقري الجديد بإعادة ما سرقته من والدي عند هروبي سابقًا تلك الأموال التي كان يحتاجها بشدة، حيث أصبح لا يقوى على ممارسة العمل الشاق، فقام والدي بإيداعها كوديعة في أحد البنوك نعتاش من مردودها، واحتفظ بجزء بسيط من المال وأنشأ منه عملًا تجاريًّا بسيطًا لا يتطلب عملًا شاقًّا.

أما عني فقد التحقت بمدرسة الثانوية التجارية وبعد تخرجي منها امتهنت أحد الأعمال الإدارية في إحدى الشركات الخاصة و استخرجت لنفسي شهادة ميلاد جديدة باسم جميلة الجميلة بعد وفاة طيف جميلة المحرومة المنحلة.